

# التجارة والملاحة في الخليج خلال القرن السابع عشر

د. عبد الرزاق محمود المعاني

---

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام

حكومة الشارقة

٢٠٠١م

## المقدمة

يتميز الخليج العربي بموقعه الجغرافي المتحكم في طرق التجارة، وكان هذا الموقع مما أتاح للعرب للقيام بنشاط تجاري واسع عبر طرق برية وبحرية عديدة منذ أقدم العصور، امتد إلى الهند والصين شرقاً، والعراق وفارس وبلاد الشام غرباً، ثم إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، ووصل إلى مصر وساحل إفريقية الشرقي.

وكانت التوابل محور هذا النشاط التجاري الواسع، ومحور التنافس بين القوى المحلية والقوى الأجنبية، فبعد أن سيطر العرب على تجارة المنطقة زمناً طويلاً، وحققوا نجاحاً ملحوظاً في هذا المجال، تراجعوا أمام البرتغاليين الذين وصلوا إلى الخليج في أوائل القرن السادس عشر بأساطيلهم البحرية التجارية والحربية، وعملوا على الإفادة من موقعه الاستراتيجي، فسيطروا على الطرق التجارية إلى الهند، مما أدى إلى تراجع السيادة العربية البحرية والتجارية.

وتحول الخليج العربي إلى منطقة صراع بين البرتغاليين والقوى العربية والعثمانية من جهة، ثم بين البرتغاليين والإنجليز من جهة ثانية، واستمر ذلك حتى أوائل القرن الثامن عشر حيث اضطر البرتغاليون إلى الانسحاب من المنطقة. وكان التنافس بين الإنجليز والهولنديين من أجل السيطرة على طرق الملاحة، وعلى التجارة في منطقة الخليج العربي قد ظهر منذ أن بدأ الضعف يدب في أوصال البرتغاليين، ثم أخذ هذا التنافس - الذي انضم إليه الفرنسيون في وقت متأخر - يزداد حدة في القرن السابع عشر، وبدأ تفوق الإنجليز على منافسيهم واضحاً منذ بداية القرن الثامن عشر.

وقد حظي الخليج العربي بدراسات أكاديمية تناولت تاريخه السياسي والنشاط التجاري لعرب الخليج خلال العصور القديمة والوسطى. أما تاريخه الاقتصادي في القرن السابع عشر فلم تشر إليه تلك الدراسات إلا لمأماً، ولم يفرّد أي من الباحثين دراسة تتناول التجارة والملاحة بشكل مقصود وإنما تطلّقا إليهما عرضاً. فأطروحة نوال حمزة يوسف الصيرفي: (النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن ١٠هـ / ١٦م) خرجت عن إطارها الزمني إذ أولت اهتماماً أكبر للفترة التي سبقت القرن السادس عشر، كما أن اهتمامها انصب على الجانب السياسي للنفوذ البرتغالي وليس على الجانب الاقتصادي.

أما أطروحة صالح أوزيران التي قدمت باللغة الإنجليزية لنيل درجة الدكتوراه في جامعة لندن، وترجم معظمها في كتاب: (الأترك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٢٤ - ١٥٨١) فقد ركزت على الصراع العثماني - البرتغالي في الخليج العربي في منتصف القرن السادس عشر.

ولعل أقدم أطروحة في هذا المجال هي أطروحة سترلينغ Stripling المعنونة: (الأترك العثمانيون والعرب ١٥١١ - ١٥٧٤) -

(The Ottoman Turks and Arabs 1511 - 1574)، غير أنها أولت اهتمامها بتاريخ بلاد الشام ومصر في عهد المماليك، ولأثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على تجارة هذين البلدين، وبذلك فإن نصيب الخليج العربي من هذه الأطروحة كان قليلاً.

وقد نال الخليج العربي نصيباً أوفر في أطروحة جمال زكريا قاسم: (الخليج العربي: دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠)؛ ولكن طول الفترة الزمنية التي بلغت نحو ثلاثة قرون ونصف القرن، وامتدت حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر شتت جهود الباحث، فجاغت معالجته للجانب الاقتصادي أقل عمقاً وشمولاً.

وظهرت أطروحات أخرى درست القرن السابع عشر ولكنها ركزت على الجانب السياسي وأغفلت تاريخه الاقتصادي تماماً، أو أشارت إليه إشارات عابرة. كما أنها اقتصرت على فترات تاريخية إما سابقة أو متداخلة من القرن السابع عشر.

وقد حفزني ذلك كله إلى تناول (التجارة والملاحة في الخليج العربي خلال القرن السابع عشر) محاولاً تعرف هذين الجانبين حصراً، وذلك إشاراً للتعقق، لعلني أسد ثغرة في دراسات الخليج العربي وأجسر فجوة زمنية محددة هي القرن السابع عشر.

وهناك سبب آخر جعلني أختار هذا القرن بالتحديد هو أن المنطقة شهدت خلاله تطورات سياسية واقتصادية كانت على جانب كبير من الأهمية، ومع ذلك كان من أكثر الفترات التاريخية افتقاراً للدراسات في المجال الاقتصادي.

وتقع هذه الدراسة في أربعة فصول وخاتمة، تناول الأول منها: الموقع الجغرافي للخليج العربي وأهميته في القرن السادس عشر، فتحدث عن التجارة العربية قبل وصول البرتغاليين، وعن البرتغاليين والسيطرة على

التجارة الشرقية في القرن السادس عشر، وضعف الوجود البرتغالي بظهور القوى المناهضة.

وقد وضح هذا الفصل كيف أدى العرب دور الوسيط التجاري في نقل تجارة الشرق إلى موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر، ومنها إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، كما وضح كيفية السيطرة التي مارسها البرتغاليون على تجارة المنطقة في الشرق عامة، والخليج العربي خاصة، متخذين في ذلك وسائل وأساليب عديدة لتحقيق أهدافهم الاحتكارية، وذلك قبل انهيار وجودهم لأسباب محلية وخارجية أسهمت في ذلك، وقد تصدى لها هذا الفصل توضيحاً وتحليلاً.

وتناول الفصل الثاني التطورات السياسية والتجارية في القرن السابع عشر، وقد تطرق للقوى السياسية التي ظهرت في هذا القرن وهي: الدولة الصفوية، والعثمانيون، وآل إفراسياب، ودولة اليعاربة، والقوى العربية الأخرى، والقوى الأوروبية. وركز هذا الفصل على السياسات التي اتبعتها هذه القوى السياسية من أجل تشييط التجارة، وما وقع من تناقض تجاري محموم بين القوى السياسية الأوروبية خاصة للسيطرة على تجارة الخليج.

وتناول الفصل الثالث الطرق التجارية وأوضاعها، حيث تعرض للطرق التجارية البحرية والنهرية، ودورها في النشاط التجاري للخليج العربي خلال القرن السابع عشر، ثم تناول الطرق البرية بما يعطي فكرة واضحة عنها، وعن القوافل التجارية بأنواعها. ثم تحدث عن صناعة السفن وتطورها باعتبارها الوسيلة الأساسية للنقل البحري والنهري.

وأما الفصل الرابع فكانت السلع التجارية المتبادلة بين منطقة الخليج العربي والشرق عامة محور الأساس، وإتماماً للدراسة تم التطرق في هذا الفصل للنقود والعملات المستخدمة لأغراض البيع والشراء، أوروبية كانت أم

محلية، وإلى الأوزان والمكاييل باعتبارها أدوات لتسهيل المبادلات التجارية. وقد أفادت هذه الدراسة من عدد من الوثائق والمصنفات العربية والأجنبية التي تناولت منطقة الخليج العربي، وتحديث عن نشاطها التجاري خلال القرن السابع عشر.

وكانت الوثائق من أهم المصادر التي تم الرجوع إليها في إعداد هذه الدراسة، ومن أبرزها الوثائق الإنجليزية التي نشرها وليام فوستر William Foster بعنوان: (The English Factories in India 1618 - 1668). وتتألف هذه المجموعة من ثلاثة عشر جزءاً، مع مقدمة لكل جزء. ولهذه الوثائق فائدة كبيرة لدارس الخليج العربي خلال القرن السابع عشر، لأنها لا تسلط الضوء على فعاليات الشركة الإنجليزية فحسب، وإنما تركز أيضاً على بعض النشاطات العربية التي لا نجد لها ذكراً في المصادر المحلية العربية أو الفارسية. وقد أضدت من جميع الأجزاء في الاطلاع على المراسلات التي كانت تدور حول النشاط التجاري الهولندي في الشرق والخليج العربي.

كما اعتمدت الدراسة على وثائق البحرية البريطانية، Great Britain, India Office, Marine Records, حيث يضم المجلد ٨٩١ من تلك الوثائق العديد من التقارير المهمة حول تجارة الخليج. وهذه التقارير موجودة أيضاً في مختارات سلدانها: Selections From The State Papers, Bombay, Regarding the East Indian Company's Connection With a Summary of Events From 1600 - 1800. وهي أحد المصادر الوثائقية المهمة التي يمكن الاعتماد عليها في تتبع النشاطات التجارية الأوربية خلال فترة الدراسة. وهذه الوثائق عبارة عن مراسلات بين ممثلي شركة الهند الشرقية في الخليج العربي وبلاد فارس وبين رئاسة الشركة، وقد تميزت هذه المراسلات بالإسهاب، الأمر الذي استغرق وقتاً طويلاً في استخلاص

المعلومات المطلوبة. وقد اشتملت أيضاً على مختصرات تاريخية شاملة عن بعض إمارات الخليج كمسقط، وقطر، والبحرين، ومشيخات الساحل العُماني. واعتمدت الدراسة كذلك على حوليات John Bruce المعنونة *Annals of the Honorable East India Company 1600 - 1708* بمجلداتها الثلاثة التي تغطي فعاليات الشركة الإنجليزية منذ بداية القرن السابع عشر حتى عام ١٧٠٧، وتغطي صورة شاملة لتأثير العلاقات الدولية الأوربية في النشاط التجاري، فضلاً عن أن المؤلف وضع عناوين بارزة تسهل على الباحث الوصول إلى مبتغاه.

ومن الكتب التي لا تقل أهمية عن المصادر الوثائقية المذكورة سابقاً، كتاب: (حوليات الآباء الكرمليين في فارس خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر) *A Chronicle of the Carmelites in Persia* الذي يتعرض لكثير من النشاطات السياسية والتجارية والقوى الأوربية والمحلية في منطقة الخليج العربي، وتوفر هذه الحوليات معلومات دقيقة لا نجدها في مصادر أخرى.

وتعتبر مؤلفات الرحالة الأوربيين الذين زاروا المنطقة في فترات مختلفة مصادر مهمة لا يستغني عنها الباحث في تاريخ الخليج، وبخاصة المتعلقة بالقرن السابع عشر، ذلك لأن أصحابها زاروا موانئ الخليج العربي وبلاد فارس، وعاصروا الأحداث، وكانوا شهود عيان لها خلال فترة الدراسة، وتأتي رحلة تكسييرا *Texeira* التي ترجم جعفر خياط، بعض فصولها تحت عنوان (رحلة تكسييرا إلى العراق ١٦٠٤) من أهم الرحلات في القرن السابع عشر، فقد تضمنت كثيراً من المعلومات المتعلقة بالخليج العربي بجوانبه المختلفة.

ولعل أهم الرحلات لموضوع دراستنا هي رحلة الأب كير *Abbe Carre* الذي زار الهند والشرق خلال الفترة ١٦٧٢ - ١٦٧٤ التي تعدّ فترة الازدهار والتفوق التجاري الهولندي في بلاد فارس والخليج العربي، وقدم رحلته في

ثلاثة أجزاء تناول فيها التجارة الهولندية في بندر عباس وفي البصرة، كما تناول علاقة الهولنديين بالصفويين من خلال وصفه بعض الاحتفالات في دار الحاكم في بندر عباس. ولرحلة تافرنبيه (Tavernier)، التي ترجمها إلى اللغة العربية يعقوب سركيس بعنوان: (العراق في القرن السابع عشر) أهمية خاصة، لأن ما ترجم منها لا يخص العراق فقط، وإنما يتطرق لبلاد فارس. ولهذه الرحلة فوائد كبرى فيما يتعلق بالطرق البرية، والسلع التجارية، وعلاقات الدول الأوروبية بالمنطقة. ومثل ذلك يقال عن الرحلة التي قام بها آلن فليبرز عام ١٩٢٩، فعلى الرغم من أن هذا الوقت متأخر إلا أن كتابه (أبناء السندباد) يمكن الاعتماد عليه كمصدر لتاريخ الحياة والملاحة في الخليج خلال القرن السابع عشر، وذلك لأن هذين الجانبين لم يتطورا تطوراً ملحوظاً بل لم يختلف وضعهما كثيراً عما كان عليه من قبل وحتى اكتشاف البترول. وقد قام المؤلف برحلته على متن أحد المراكب الشراعية الكويتية ابتداء من البصرة شمالاً وانتهاء بسواحل إفريقية الشرقية، مروراً بموانئ الخليج المختلفة، وسواحل الجزيرة العربية الشرقية والجنوبية وعدن. ومما يذكر أن هذا المؤلف لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاهما حقها من الوصف، فقد وصف المراكب وأجزاءها، ووصف الموانئ التي توقف عندها، وقدم تفصيلات كثيرة عن فنون الملاحة البحرية العربية. والحقيقة أن كتاب آلن فليبرز (أبناء السندباد) كتاب ممتع، كتب بأسلوب قصصي. وقد أصبح هذا الكتاب في متناول الجميع بعد أن ترجمته وزارة الإعلام في دولة الكويت إلى اللغة العربية.

واعتمدت هذه الدراسة على مجموعة من الكتب المتخصصة، أهمها كتاب (الخليج بلدانه وقبائله) لسموئيل مايلز Samuel Miles: (The Countries and Tribes of Persian Gulf). ويعتبر هذا الكتاب أول المصادر الأجنبية

وأهمها فيما يتعلق بالخليج، فهو مصدر أساسي يحتوي معلومات قيّمة في مجالات مختلفة، ويقع في مجلدين تم إصدارهما عام ١٩١٩، وكان مؤلفه مايلز قد عمل وكيلاً سياسياً وكتّاباً عاماً لبريطانيا في مسقط عام ١٨٧١م، ولعل هذا يزيد من قيمة المعلومات التي أوردها في كتابه.

ويلي كتاب مايلز في الأهمية كتاب أرنولد ويلسون: الخليج الفارسي؛ A.Wilson: The Persian Gulf. وقد نشر هذا الكتاب للمرة الأولى في لندن عام ١٩٢٨، ثم أعيدت طباعته عام ١٩٥٤، وهو دراسة للمنطقة منذ العصور القديمة، مع تركيز أكثر على العصور المتوسطة.

ومن بين الكتب التي يجب ذكرها في هذه الدراسة المصادر العُمانية، فهي وإن أغفلت تاريخ عُمان في القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، إلا أنها أسهمت بشكل كبير في تدوين الأحداث التاريخية الخاصة بالمنطقة بعد طرد البرتغاليين من عُمان في منتصف القرن السابع عشر. وقد أشير إلى هذه المصادر في متن الرسالة وفي ثبت المصادر والمراجع.

كما استفادت هذه الدراسة من المراجع العربية مع أنها - على العموم - لم تتعرض للتجارة والملاحة في الخليج خلال القرن السابع عشر بشكل مباشر، وإنما أشارت إلى ذلك مجرد إشارات، وبشكل موجز، وهي تتناول موضوعات أخرى. وقد كانت مؤلفات الدكتور عبد الأمير محمد أمين (المصالح البريطانية في الخليج العربي) و (نشاط الأوروبيين التجاري في آسيا) خير معين لي في هذه الدراسة، وخاصة الأخير، إذ إنه رغم تركيزه على نشاط الأوروبيين التجاري في آسيا، تضمن الكثير مما له علاقة بموضوع دراستنا، وبشكل خاص ذلك الجزء الذي يتناول السلع التجارية والتنافس الأوروبي في الخليج.

وهناك دراسات أخرى كثيرة أفاد منها الباحث، وقد تمت الإشارة إليها في هوامش الرسالة وفي قائمة المصادر والمراجع، وكانت كبيرة الفائدة حيث

أمدت الباحث بمادة غزيرة، وأسهمت في توجيه خطواته.

لقد حرصت هذه الدراسة على تقديم مادة علمية موثقة تغطي موضوعها، وتعطي صورة واضحة للتجارة والملاحة في الخليج خلال القرن السابع عشر، وأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك بفضل الله، ثم بفضل أساتذتي الذين شرفوني بالتلمذة على أيديهم، وبذلوا جهودهم في التوجيه وإثارة الطريق، والأخذ باليد.

